و « الضِّغْث » هو حزْمة من الحشائش مختلفة الأجناس ؛ فكأن رُؤْيا الملك لا تأويلَ لها عندهم ؛ لأنهم ليسوا من أهل التمييز فى التأويل .

وهذا صدْق من البطانة فى ألاَّ يخبر أحدهم بشىء ، إلا إذا كان على علم به ؛ ولا يضير أحدهم أن يعلن جهله بأمر ما لا يعلمه .

والذى يعلن جهله بأمر لسائله - ويكون قد علمه - يجعله يسأل غيره ، أما إن أجاب بجواب ؛ فربما جعله يَثْبُتُ على هذا الجواب .

ولذلك قال العلماء ليفسحوا مجال الصِّدْق فى الفُتْيا : « مَنْ قال لا أدرى فقد أفتى » ؛ لأنه حين يقول « لا أدرى » ؛ سيضطرك إلى أن تسأل غيره .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ(١) بَعْدَ أُمَّةٍ(٢) أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ ﴾

وكان الذى نجا من السجينين يسمع مقالة الملك وردّ الملأ ؛ فاسترجع بذاكرته ما مَرَّ عليه فى السجن ، وكيف رأى الرُّؤيا ، وكيف قام يوسف بتأويلها .

---

(١) ادكر : أصلها اذتكر على وزن افتعل ، قلبت تاء الافتعال دالاً وذال الفعل دالاً وادغمت الدالان : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [القمر] [القاموس القويم ١/٢٤٤] .

(٢) الأمة : المدة والحين والوقت . وفُسِّر به قوله تعالى : ﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [يوسف] . وقرأ ابن عباس « وادكر بعد أمَه » بالهاء . والأمَهُ : النسيان والغفلة أى تذكر بعد نسيان . [القاموس القويم ١/٣٤].

وقوله : ﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ .. (٤٥) ﴾ [يوسف]

يعنى : أنه أجهد عقله وذهنه ؛ وافتعل التذكُّر لأن فترة لا بأس بها من الزمن قد مرَّتْ ، وكلمة « أمة » تعنى فترة من الزمن ؛ كما فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٨) ﴾ [هود]

و « الأمة » قد يُرَاد بها الجماعة من الناس ، ويُراد بها أيضاً الرجل الجامع لكل صفات الخير ، كما قال الحق سبحانه فى وصف إبراهيم عليه السلام :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا[1] لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) ﴾ [النحل]

أى : أن كل خصال الخير مجموعة فى إبراهيم عليه وعلى نبينا السلام ، وبعد أن افتعل ساقى الملك واجتهد ليتذكر ما حدث له منذ فترة هى بضع سنين ؛ أيام أنْ كان سجيناً ورأى رُؤيا منامية أوَّلَها له يوسف ، قال الساقى للملأ وللملك عن تلك الرؤيا :

﴿ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) ﴾ [يوسف]

وبذلك استأذن ليذهب إلى مَنْ يُؤوِّل له رُؤيا الملك .

وقوله : ﴿ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) ﴾ [يوسف]

(١) القنوت : الطاعة والدعاء . وقنت المؤمن بالله : أطاعه وأقرَّ له بالعبودية . وقنت فى صلاته : خشع واطمأن . وقنت : دعا وأطال الدعاء . [القاموس القويم ٢/١٣٤].

يعنى أن التأويل ليس من عنده ؛ بل هو يعرف مَنْ يستطيع تأويل الرُّؤى .

ونلحظ أن القرآن لم يحمل على لسان هذا الرجل : إلى من سوف يذهب ؛ لأن ذلك معلوم بالنسبة له ولنا ، نحن الذين نقرأ السورة .

وانتقل القرآن من طلب الإرسال إلى لقاء يوسف عليه السلام ؛ فيقول الحق سبحانه ما جاء على لسان ساقى الملك :

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ(١) أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

وقوله : ﴿ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [يوسف]

يدل على أنه قد جرَّبه فى مسائل متعددة ، وثبت صدقه .

و « صدِّيق » لا يقتصر معناها على أنه صادق فى كل أقواله ؛ وصادق فى كل أفعاله ، وصادق فى كل أحواله ، ولكن معناها يتسع ليدلَّنا على أن الصدق ملازم له دائماً فى القول وفى الفعل .

---

(١) الصِّدِّيق : بكسر الصاد وتشديد الدال: صيغة مبالغة من الصدق . ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ..﴿١٩﴾ ﴾[الحديد] ، وهى صدِّيقة : ﴿ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ .. ﴿٧٥﴾ ﴾ [المائدة] هى مريم عليها السلام . [القاموس القويم ١/٣٧٢] .

أما فى الأقوال فصدقه واضح ؛ لأنه يقول القضية الكلامية ولها واقع من الخارج يدلُّ عليها .

وأما صدق الأفعال فهو ألاَّ تُجرِّب عليه كلاماً ، ثم يأتى فعله مخالفاً لهذا الكلام ؛ وهذا هو مَنْ نطلق عليه « صدِّيق » .

ونحن نعلم أن حركات الإنسان فى الحياة تنقسم قسمين ؛ إما قول وإما فعل ؛ والقول أداته اللسان ، والفعل أداته كل الجوارح .

إذن : فهناك قول ، وهناك فعل ؛ وكلاهما عمل ؛ فالقول عمل ؛ والرؤية بالعين عمل ؛ والسمع بالأذن عمل ، والمسُّ باليد عمل .

لكن القول اختصَّ باللسان ، وأخذتْ بقية الجوارح الفعل : لأن الفعل هو الوسيلة الإعلامية بين متكلم وبين مخاطب ، وأخذ شق الفعل .

وهكذا نعلم أن الفعل قسمان : إما قول ؛ وإما فعل .

والصِّدِّيق هو الذى يصدُق فى قوله ، بأن تطابق النسبة الكلامية الواقع ، وصادق فى فعله بألاَّ يقول ما لا يفعل .

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ كَبُرَ مَقْتًا(١) عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) ﴾ [الصف]

ونعلم أن ساقى الملك كانت له مع يوسف تجربتان :

---

(١) المقت : أشد الإبغاض . مقته يمقته : أبغضه . ويقول تعالى: ﴿ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ .. (١٠) ﴾ [غافر] قال : يقول : لمقت الله إياكم حين دعيتم إلى الإيمان فلم تؤمنوا أكبر من مقتكم أنفسكم حين رأيتم العذاب . [لسان العرب ـ مادة : مقت] .

التجربة الأولى : تجربة مُعَايشته فى السجن هو وزميله الخباز ، وقولهما له :

﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) ﴾ [يوسف]

وكان قولهما هذا هو حيثية سؤالهم له أن يُؤوِّل لهما الرؤيين :

﴿ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) ﴾[يوسف]

والتجربة الثانية : هى مجيء واقع حركة الحياة بعد ذلك مطابقاً لتأويله للرؤيين . ولذلك يقول له هنا :

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) ﴾ [يوسف]

أى : افتنَا فى رُؤيا سبع بقرات سمَان ؛ يأكلهن سبعُ بقرات شديدة الهُزَال ، وسبع سُنْبلات خُضْر ، وسبع أُخَر يابسات ، لعلِّى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون .

وقوله : ﴿ أَفْتِنَا .. (٤٦) ﴾ [يوسف]

يوضح أنه لا يسأل عن رؤيا تخصُّه ؛ بل هي تخص رائياً لم يُحدده ، وإنْ كنا قد عرفنا أنها رُؤيا الملك .

وقوله : ﴿ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ .. (٤٦) ﴾ [يوسف]

هو تحرُّز واحتياط فى قضية لا يجزم بها ؛ وهو احتياط فى واقع

قدر الله مع الإنسان ، والسائل قد أخذ أسلوب الاحتياط ؛ ليخرجه من أن يكون كاذباً ، فهو يعلم أن أمر عودته ليس فى يده ؛ ولذلك يُعلمنا الله :

﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا (٢٤) ﴾ [الكهف]

وساعة تقول : « إن شاء الله » تكون قد أخرجتَ نفسك من دائرة الكذب ؛ وما دُمْتَ قد ذكرتَ الله فهو سبحانه قادر على أن يَهديك إلى الاختيار المناسب فى كل أمر تواجه فيه الاختيار .

فكأن الله يُعلِّم عباده أن يحافظوا على أنفسهم ، بأن يكونوا صادقين فى أقوالهم وأفعالهم ؛ لأنك مهما خططتَ فأنت تخطط بعقل موهوب لك من الله ؛ وحين تُقدِم على أىِّ فعل ؛ فأيُّ فعل مهما صَغُر يحتاج إلى عوامل متعددة وكثيرة ، لا تملك منها شيئاً ؛ لذلك فعليك أنْ تردَّ كلَّ شىء إلى مَنْ يملكه .

وهنا قال الساقى :

﴿ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ .. (٤٦) ﴾ [يوسف]

وبذلك يُعلِّمنا الحق سبحانه الاحتياط .

وأضاف الحق سبحانه على لسان الرجل :

﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) ﴾ [يوسف]

وكان الرجل قد عرف أنه حين يأخذ التأويل من يوسف عليه

السلام ؛ ويعود به إلى الناس ؛ فهو لا يعلم كيف يستقبلون هذا التأويل ؟

أيستقبلونه بالقبول ، أم بالمُحاجَّة[1] فيه ؟ أو يستقبلون التأويل بتصديق ، ويعلمون قَدْرك ومنزلتك يا يوسف ؛ فيُخلِّصوك مما أنت فيه من بلاء السجن .

وقوله تعالى : ﴿ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ .. (٤٦) ﴾ [يوسف]

قد يدفع سائلاً إلى أن يقول : مَنِ الذى كلَّف الساقى بالذَّهاب إلى يوسف ؛ أهو الملك أم الحاشية ؟

ونقول : لقد نسبها الساقى إلى الكل ؛ للاحتياط الأدائى .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا[2] فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ﴾

وهذه بداية تأويل رُؤْيا الملك .

والدَّأب معناه : المُواظبة ؛ فكأن يوسف عليه السلام قد طلب أن يزرع أهل مصر بدأب وبدون كسل .

---

(١) تحاجًا : تخاصما وتنازعا الحجة ، كل منهما يحاول أن يثبت أنه المحق . قال تعالى : ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ .. (٤٧)﴾ [غافر] أى : يتخاصمون . [القاموس القويم ١/ ١٤٣].

(٢) دأب على الأمر: اعتاده . والدَّأْب والدَّأَب : العادة والشأن . قال تعالى : ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ .. (٣١)﴾ [غافر] أى : عادتهم وشأنهم . وقال تعالى : ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا .. (٤٧)﴾ [يوسف] [القاموس القويم ١/ ٢١٩] .

ويتابع : ﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ﴾ [يوسف]

أى : ما تحصدونه نتيجة الزرع بجدٍّ واجتهاد ؛ فلكم أنْ تأكلوا القليل منه ، وتتركوا بقيته محفوظاً فى سنابله .

والحفظ فى السنابل يُعلِّمنا قَدْر القرآن ، وقدرة مَنْ أنزل القرآن سبحانه ، وما آتاه الله جل علاه ليوسف عليه السلام من علم فى كل نواحى الحياة ، من اقتصاد ومقومات التخزين ، وغير ذلك من عطاءات الله ، فقد أثبت العلم الحديث أن القمح إذا خُزِّن فى سنابله ؛ فتلك حماية ووقاية له من السوس .

وبعض العلماء قال فى تفسير هذه الآية : إن المقصود هو تخزين القمح فى سنابله وعيدانه .

وأقول : إن المقصود هو تَرْك القمح فى سنابله فقط ؛ لأن العيدان هى طعام الحيوانات .

ونحن نعلم أن حبة القمح لها وعاءان : وعاء يحميها ؛ وهو ينفصل عن القمحة أثناء عملية « الدَّرْس » ؛ ثم يطير أثناء عملية « التذرية » مُنفصِلاً عن حبوب القمح .

ولحبة القمح وعاء ملازم لها ، وهو القشرة التى تنفصل عن الحبة حين نطحن القمح ، ونسميها « الردة » وهى نوعان : « ردة خشنة » و « ردة ناعمة » .

ومن عادة البعض أن يَفصِلوا الدقيق النقى عن « الردة » ،

وهؤلاء يتجاهلون - أو لا يعرفون - الحقيقة العلمية التى أكدت أن تناول الخبز المصنوع من الدقيق الأبيض الخالى من « الردة » يصيب المعدة بالتلبُّك .

فهذه القشرة الملازمة لحبة القمح ليست لحماية الحبة فقط ؛ بل تحتوى على قيمة غذائية كبيرة .

وكان أغنياء الريف فى مصر يقومون بتنقية الدقيق المطحون من « الردة » ويسمُّونه « الدقيق العلامة » ؛ الذى إنْ وضعت ملعقة منه فى فمك ؛ تشعر بالتلبُّك ؛ أما إذا وضعت ملعقة من الدقيق الطبيعى الممتزج بما تحتويه الحبة من « ردة » ؛ فلن تشعر بهذا التلبُّك .

ويمتنُّ الله على عباده بذلك فى قوله الحق :

﴿ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ[1] وَالرَّيْحَانُ (١٢) ﴾ [الرحمن]

وقد اهتدى علماء هذا العصر إلى القيمة الفاعلة فى طَحْن القمح، مع الحفاظ على ما فيه من قشر القمح ، وثبت لهم أن مَنْ يتناول الخبز المصنوع من الدقيق النقى للغاية ؛ يعانى من ارتباك غذائى يُلجئه إلى تناول خبز مصنوعٍ من قشْر القمح فقط ، وهو ما يسمى « الخبز السِّن » ؛ ليعوض فى غذائه ما فقده من قيمة غذائية .

وهنا يقول الحق سبحانه :

---

(١) الحب ذو العصف : أى ذو التبن أو ذو الورق الذى يغلفه . والعَصْف والعصيفة : ورق السنبل . قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية (٤/٢٧١) : «معنى هذا والله أعلم أن الحب كالقمح والشعير ونحوهما له فى حال نباته عصف وهو ما على السنبلة ، وريحان وهو الورق الملتف على ساقها » .

﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ﴾ [يوسف]

وهكذا أخبر يوسف الساقى الذى جاء يطلب منه تأويل رُؤْيا الملك ؛ بما يجب أن يفعلوه تحسُّباً للسنوات السبع العجاف التى تلى السبع سنوات المزدهرة بالخُضْرة والعطاء ، فلا يأكلوا مِلْء البطون ؛ بل يتناولوا من القمح على قَدْر الكفاف :

﴿ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ﴾ [يوسف]

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف عليه السلام من بقية التأويل لحُلْم الملك :

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ (١) (٤٨) ﴾

وهكذا أوضح يوسف عليه السلام ما سوف يحدث فى مصر من جَدْب يستمر سبع سنوات عجاف بعد سبع سنوات من الزرع الذى يتطلب هِمَّة لا تفتر .

وقوله سبحانه فى وصف السبع « سنوات » بأنها :

﴿ شِدَادٌ (٤٨) ﴾ [يوسف]

يعنى : أن الجَدْب فيها سوف يُجهِد الناس ؛ فإنْ لم تكُنْ هناك

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤/٣٥٢٦) : « أى : مما تحبسون لتزرعوا ، لأن فى استبقاء البذر تحصين الأقوات. قال أبو عبيدة : تحرزون . وقال قتادة : تحصنون : تدَّخرون ، والمعنى واحد » .

حصيلة تَمَّ تخزينها من محصـول السبع السنوات السابقة ، فقد تحدُث المـجـاعـة ، وليـعـصـم الناسُ بطونهم فى السـنوات السـبع الأولى ، وليأكلوا على قَدْر الضرورة ؛ ليضمنوا مواجهة سنوات الجَدْب .

ونحن نعلم أن الإنسان يستبقى حـياته بالتنفس والطعام والشراب؛ والطعام إنما يَمْرى على الإنسان ، ويعطيه قوة يواجه بها الحياة .

ولكن أغلب طعامنا لا نهدف منه القوة فـقط ؛ بل نبغى منه المتعة أيضاً ، ولـو كان الإنسان يـبغى سَدَّ غـائلة[1] الجـوع فقط ، لاكتـفى بالطعام المسلوق ، أو بالخبز والإدام فقط ، لكننا نأكل للاستمتاع .

ويتكلم الحق سبحانه عن ذلك فيقول :

﴿ فَكُلُوهُ هَنِيئًا[2] مَّرِيئًا[3] (٤) ﴾ [النساء]

أى : بدون أن يـضـرك ، ودون أن يُلـجِـئك هـذا الطعـام إلى المُهْضِمات من العقاقير .

وهذا هو المقصود من قول الحق سبحانه :﴿هَنِيئًا.. (٤)﴾ [النساء]

أما المقصود بقوله : ﴿مَّرِيئًا (٤)﴾ [النساء]

---

(١) الغوائل : المهالك . والغَوْل : المشقة . [لسان العرب ـ مادة : غول] .

(٢) هَنُؤَ يَهْنُؤ هناءة : تيسر بلا مشقة ، وسَهُل أمره ، وسعد به صاحبه وهو طعام هنىء : أى سائغ نافع يسعد به آكله . قال تعالى : ﴿فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا (٤)﴾ [النساء] أى : حلالاً طيباً لا حرمة فيه ولا حرج عليكم فى أكله . [القاموس القويم ٢/٣٠٩] .

(٣) مَرُءَ الطـعام : سَهُلَ فـى الحلق وحُمِـدت عاقبـته وخـلا من التنغيـص . [القاموس الـقويم ٢/٢٢٠] .

فهو الطعام الذى يفيد ويمدُّ الجسم بالطاقة فقط ؛ وقد لا يُستساغ طعمه .

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ﴾ [يوسف]

وبطبيعة الحال نفهم أن السنوات ليست هى التى تأكل ؛ بل البشر الذين يعيشون فى تلك السنوات هم الذين يأكلون .

ونحن نفهم ذلك ؛ لأننا نعلم أن أى حدث يحتاج لزمان ولمكان ؛ ومرة يُنسب الحَدث للزمان ؛ ومرة يُنسب الحَدث للمكان .

والمثل على نسبة الحَدث للمكان هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَاسْأَلِ(١) الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ(٢) .. (٨٢) ﴾ [يوسف]

وطبعاً نفهم أن المقصود هو سؤال أهل القرية التى كانوا فيها ، وأصحاب القوافل التى كانت معهم .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ؛ نجد الحدث منسوباً للزمان ؛ وهم سيأكلون مما أحصنوا إلا قليلاً ؛ لأنهم بعد أن يأكلوا لا بد لهم من الاحتفاظ بكمية من الحبوب والبُذُور لاستخدامها كتقاوى فى العام التالى لسبع سنوات موصوفة بالجدب .

---

(١) وهذا الأسلوب يسمى فى البلاغة المجاز بالحذف ـ دلائل الإعجاز للجرجانى .

(٢) العير : القافلة . والعير : القوم معهم دوابُّهم وأحمالهم من الطعام . قال تعالى : ﴿ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) ﴾ [يوسف] أى : أيها القوم الراحلون . [القاموس القويم ٢/٤٤] .

وقوله تعالى :

﴿ مِمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ﴾ [يوسف]

نجده من مادة « حصن » وتفيد الامتناع ؛ ويقال : « أقاموا فى داخل الحصن » أى : أنهم إنْ هاجمهم الأعداء ؛ يمتنعون عليهم ؛ ولا يستطيعون الوصول إليهم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ .. (٢٤) ﴾ [النساء]

أى : المُمْتنعات عن عملية الفجور ؛ وهُنَّ الحرائر .

وأيضاً يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا .. (٩١) ﴾ [الأنبياء]

أى : التى أحكمتْ صيانة عفَّتها ، وهى السيدة مريم البتول[1] عليها السلام ، وهكذا نجد مادة « حصن » تفيد الامتناع .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ[2] (٤٩) ﴾

(١) البتول من النساء: العذراء المنقطعة عن الأزواج . ويُقال : هى المنقطعة إلى الله عز وجل عن الدنيا . [لسان العرب ـ مادة : بتل] .

(٢) قال ابن عباس : يعصرون الأعناب والدُّهْن . وقال ابن جريج : يعصرون العنب خمراً ، والسمسم دُهناً ، والزيتون زيتاً . وقيل : أراد حلب الألبان لكثرتها ، ويدلّ ذلك على كثرة النبات . [تفسير القرطبى ٣٥٢٧/٤] .

ونلحظ أن هذا الأمر الذى تحدث عنه يوسف عليه السلام خارج عن تأويل الرُّؤيا ؛ لأن ما احتوته رُؤيا الملك هو سبع بقرات عجاف[1] يأكلن سبع بقرات سِمَانٍ ؛ وسبع سُنبلات خُضْر وأُخَر يابسات .

وأنهى يوسف عليه السلام تأويل الرُّؤيا ، وبعد ذلك جاء بحكم العقل على الأمور ؛ حيث يعود الخِصْب العادى ليعطيهم مثلما كان يعطيهم من قبل ذلك .

وهذا يمكن أن يطلق عليه « غَوْث » ؛ لأننا نقول « أَغِثْ فلاناً » أى : أَعِنْ فلاناً ؛ لأنه فى حاجة للعون ، والغيث[2] ينزل من السماء ليُنهِى الجَدْب .

وقوله : ﴿ يُغَاثُ النَّاسُ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [يوسف]

أى : يُعانون بما يأتيهم من فضل الله بالضرورى من قوت يمسك عليهم الحياة .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [يوسف]

أى : ما يمكن عَصْره من حبوب أو ثمار ؛ مثل : السمسم ، والزيتون ، والعنب ، والقصب ، أو البلح ، وأنت لن تعصر تلك الحبوب أو الثمار إلا إذا كان عندك ما يفيض عن قوت ذاتك وقوت من تعول .

---

(١) عجف : هزل فهو أعجف ، وهى عجفاء . أى : هزيلة . والتعجيف : سوء الغذاء والهزال . وقوله تعالى : ﴿ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [يوسف] هى : الهَزْلَى التى لا لحم عليها ولا شحم ، ضربت مثلاً لسبع سنين لا قطْر فيها ولا خِصْب . [لسان العرب ـ مادة : عجف].

(٢) الغيث : المطر . والغيث : الكلأ ينبت من ماء السماء . والأصل المطر ، ثم سُمِّى ما ينبت به غيثاً . [لسان العرب ـ مادة : غيث] .

وهكذا أوضح لنا الحق سبحانه أنهم سوف يُرزَقُونَ بخير يفيض عن الإغاثة ؛ ولهم أن يدخروه ، وما سبق فى آيات الرؤيا وتأويلها هو حوار بين يوسف الصديق - عليه السلام - وبين ساقى الملك .

ولاحظنا كيف انتقل القرآن من لقطة عجز الحاشية عن الإفتاء فى أمر الرؤيا ، وتقديم الساقى طلباً لأنْ يرسلوه كى يُحضِر لهم تأويل الرؤيا ، ثم جاء مباشرة بالحوار بين يوسف والساقى .

هنا ينتقل القرآن إلى ما حدث ، بعد أن علِم الملك بتأويل الرُّؤيا ، فيقول سبحانه :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

ومعنى ذلك أن الساقى ذهب إلى مجلس الملك مباشرة ، ونقل له تأويل الرُّؤيا ، وأصرَّ الملك أنْ يأتوا له بهذا الرجل ؛ فقد اقتنع بأنه يجب الاستفادة منه ؛ وعاد الساقى ليُخرِج يوسف من السجن الذى هو فيه .

لكنه فُوجِىء برفض يوسف للخروج من السجن ، وقوله لمن جاء يصحبه إلى مجلس الملك :

﴿ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [يوسف]

وهكذا حرص يوسف على ألاَّ يستجيب لمَنْ جاء يُخلِّصه من عذاب السجن الذى هو فيه ؛ إلا إذا برئتْ ساحته براءةً يعرفها الملك ؛ فقد

يكون من المحتمل أنهم ستروها عن أذن الملك .

وأراد يوسف عليه السلام بذلك أن يُحقق الملك في ذلك الأمر مع هؤلاء النسوة اللاتى قَطَّعْنَ أيديهن ؛ ودَعَوْنَهُ إلى الفحشاء .

واكتفى يوسف بالإشارة إلى ذلك بقوله :

﴿ إنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) ﴾ [يوسف]

ويُخفى هذا القول فى طيَّاته ما قالته النسوة من قبل ليوسف بضرورة طاعة امرأة العزيز فى طلبها للفحشاء .

وهكذا نجد القصص القرآنى وهو يعطينا العِبْرة التى تخدمنا فى واقع الحياة ؛ فليست تلك القصص للتسلية ، بل هى للعبرة التى تخدمنا فى قضايا الحياة .

وبراءة ساحة أى إنسان هو أمر مُهِمٌّ ؛ كى تزول أىُّ ريبة من الإنسان قبل أن يُسند إليه أى عمل .

وهكذا طلب يوسف عليه السلام إبراء ساحته ، حتى لا يَقُولَنْ قائل فى وشاية أو إشاعة « همزاً أو لَمْزاً »[1] : أليس هذا يوسف صاحب الحكاية مع امرأة العزيز ، وهو مَنْ راودته عن نفسه ؟

وها هو رسولنا ﷺ يقول :

«عجبت لصبر أخى يوسف وكرمه ـ والله يغفر له ـ حيث أُرْسل إليه ليُستفتى فى الرؤيا ، وإن كنت أنا لم أفعل حتى أخرج ، وعجبت من

(١) اللمز : العيب فى الوجه ، وأصله الإشارة بالعين والرأس والشفة مع كلام خفى . والهمز : الغيبة والوقيعة فى الناس وذكر عيوبهم . [لسان العرب ـ مادتى : لمز ، همز] .

صبـره وكرمـه ـ والله يغفر له ـ أُتي ليـخرج فلم يخـرج حتى أخـبرهم بعذره ، ولو كنت أنا لبادرت الباب ، ولكنه أحب أن يكون له العذر»[1] .

وشـاء نبـينا ﷺ أن يُوضِّح لنا مكانة يوسف مـن الصبـر وعـزة النفس والنزاهة والكرامة فقال ﷺ :

« إن الكريـمَ ، ابن الكريـم ، ابن الكريم ، ابـن الكريم يـوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم . قال ـ لو لبثتُ في السجن ما لبثَ ، ثم جاءني الرسول أجبتُ ثم قرأ ﷺ ـ:

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ..﴿٥٠﴾ ﴾»[2] [يوسف]

وهكذا بيَّنَ لنا الرسـول ﷺ مكانة يوسف من الـصبـر والنزاهة ، وخشيته أن يخرج من السجن فَيُشَار إليه : هذا مَنْ راود امرأة سيده .

وفي قول الرسـول ﷺ إشارة إلى مبالغـة يوسف في ذلك الأمر ، وكان من الأحوط أن يخرج من السجن، ثم يعمل على كَشْف براءته .

ومعنـى ذلك أن الكريم لا يستـغل المواقف اسـتغلالاً أحـمق ، بل يأخـذ كل موقف بـقدْره ويُرتِّب له ؛ وكـان يوسف واثقـاً من براءته ، ولكنه أراد ألاَّ يكون الملك آخر مَنْ يعلم .

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١١٦٤٠) ، قـال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٤٠): «فيه إبراهيم بن يـزيد القرشي المكي وهو مـتـروك» ، وقـد أورده السـيـوطي في الـدر المنثـور (٤/ ٥٤٨) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه من طرق عن ابن عباس .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٣٣٢) ، والترمذي في سننه (٣١١٦) وقال : « حديث حسن» ، وكذا أخـرجه الحاكم في مـستدركـه (٢/ ٣٤٦) كلهم من حديث أبي هريرة . قـال الحاكم : « هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه بهذه السياقة » ، وسكت عنه الذهبي .

وصدق رسولنا ﷺ حين قال : « دَعْ ما يَرِيبُك إلى ما لا يَرِيبك ، فإن الصدقَ طُمأنينة ، وإن الكذبَ ريبة »[١] .

وكان ﷺ يرى أن الإيمان بالله يقتضى ألاَّ يقف المؤمن موقفَ الرِّيبة ؛ لأن بعض الناس حين يَرَوْنَ نَابِهاً ، قد تثير الغيرةُ من نباهته البعضَ ؛ فيتقوَّلون عليه .

لذلك فعليك أن تحتاطَ لنفسك ؛ بألاَّ تقف موقف الرِّيبة ، والأمر الذى تأتيك منه الرِّيبة ؛ عليك أن تبتعد عنه .

ولنَا فى رسول الله ﷺ أسْوة حسنة ، فقد جاءته زَوْجه صفية بن حُيي تزوره وهو معتكف فى العشر الأواخر من رمضان ، فتحدثت عنده ساعة من العشاء ، ثم قامتْ تنقلب ـ أى : تعود إلى حجرتها ـ فقام معها رسول الله ﷺ ، حتى إذا بلغت باب المسجد الذى عند مسكن أم سلمة زوج رسول الله ﷺ ، مرَّ بهما رجلان من الأنصار فسلَّما على رسول الله ﷺ ثم نفذا[٢] ، فقال لهما رسول الله ﷺ : « على رِسْلكما ، إنما هى صفية بنت حُيي . قالا : سبحان الله يا رسول الله ، وكبر عليهما ما قال . قال : إن الشيطان يجرى من ابن آدم مبلغ الدم ، وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما »[٣] .

---

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي فى مسنده (١١٧٨) ، وكذا الإمام أحمد فى مسنده (١/ ٢٠٠)، والترمذى فى سننه (٢٥١٨) وقال : « حديث حسن صحيح » من حديث الحسن بن على .

(٢) النفاذ : الجواز . وفى المحكم : جواز الشيء والخلوص منه . تقول : نفذت أى جُزْت . [لسان العرب ـ مادة : نفذ] . أى : مرَّا وجاوزاهما .

(٣) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٢١٩) ، ومسلم فى صحيحه (٢١٧٥) من حديث صفية بنت حُيي .

وهنا فى الموقف الذى نتناوله بالخواطر ، نجد الملك وهو يستدعى النسوة اللاتى قطَّعن أيديهن ، وراوَدْنَ يوسف عن نفسه ، وهو ما يذكره الحق سبحانه :

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ[1] أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٥١) ﴾

ونعلم أن المُراودة الأولى ليوسف كانت من امرأة العزيز ؛ واستعصم يوسف ، ثم دَعَتْ هى النسوة إلى مجلسها ؛ وقطَّعْنَ أيديهن حين فُوجئْنَ بجمال يوسف عليه السلام ، وصدرت منهن إشارات ، ودعوات إثارة وانفعال .

قال عنها يوسف ما أورده الحق سبحانه :

﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ[2] إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) ﴾ [يوسف]

واستدعاهن الملك ، وسألهن : ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ .. (٥١) ﴾ [يوسف]

والخَطْب : هو الحَدَثُ الجَلَل ، فهو حدث غير عادى يتكلم به الناس ؛ فهو ليس حديثاً بينهم وبين أنفسهم ؛ بل يتكلمون عنه بحديث

---

(١) حصحص الحق : وضح وتبيَّن بعد خفائه . والحصحصة : بيان الحق بعد كتمانه أى : ظهر وبرز . [لسان العرب ـ مادة : حصص] .

(٢) صبا يصبو : مال وأحبَّ ﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ .. (٣٣) ﴾ [يوسف] أى : أملْ إليهن وأفعل ما يغريننى به . وصبا إلى اللهو : حنَّ واشتاق إليه . [القاموس القويم ١/٣٦٨] .

يصل إلى درجة تهتز لها المدينة ؛ لأن مثل هذا الحادث قد وقع .

ولذلك نجد إبراهيم عليه السلام ، وقد قال لجماعة من الملائكة :

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ(٣٢)﴾ [الذاريات]

أى : أن الملائكة طمأنتْ إبراهيم عليه السلام ؛ فهى فى مهمة لعقاب قوم مجرمين .

وموسى عليه السلام حين عاد إلى قومه ، ووجد السامرى قد صنع لهم عِجْلاً من الذهب الذى أخذوه من قوم فرعون نجده يقول للسامرى :

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥)﴾ [طه]

وقَوْل الملك هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ..(٥١)﴾ [يوسف]

يدلُّ على أنه قد سمع الحكاية بتفاصيلها فاهتزَّ لها ؛ واعتبرها خَطْباً ؛ مما يوضح لنا أن القيم هى القيم فى كل زمان أو مكان .

وبدأ النسوة الكلام ، فقُلْنَ :

﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ.. (٥١)﴾ [يوسف]

ولم يذكُرْنَ مسألة مُرَاودتهنَّ له ، وكان الأمر المهم هو إبراء ساحة يوسف عند الملك .

وقولهن : ﴿حَاشَ لِلَّهِ .. (٥١)﴾ [يوسف]

أى : نُنزِّه يوسف عن هذا ، وتنزيهُنَا ليوسف أمْرٌ من الله .

وهنا تدخلتْ امرأة العزيز :

﴿ قَالَت امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ..(٥١)﴾ [يوسف]

أى : أنها أقرَّتْ بأنه لم يَعُدْ هناك مجال للستر ، ووضح الحقُّ بعد خفاء ، وظهرتْ حصَّة الحق من حصَّة الباطل ، ولا بُدَّ من الاعتراف بما حدث :

﴿ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١)﴾ [يوسف]

وواصلت امرأة العزيز الاعتراف فى الآية التالية :

﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) ﴾

قالت ذلك حتى تُعلنَ براءة يوسف عليه السلام ، وأنها لم تنتهز فرصة غيابه فى السجن وتنتقم منه ؛ لأنه لم يستجبْ لمُراودتها له ، ولم تنسج له أثناء غيابه المؤامرات ، والدسائس ، والمكائد .

وهذا يدلُّنا على أن شرَّةَ الإنسان قد تتوهج لغرض خاص ، وحين يهدأ الغرض ويذهب ، يعود الإنسان إلى توازنه الكمالى فى نفسه ، وقد يجعل من الزَّلة الأولى فى خاطره وسيلة إلى الإحسان فيما ليس له فيه ضعف ، كى تستر الحسنةُ السيئة ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ (١١٤)﴾ [هود]

ولو أن إنساناً عمل سيئة وفضحه آخر عليها ؛ فالفاضح لتلك

السيئة إنما يحرم المجتمع من حسنات صاحب السيئة .

ولذلك أقول : استروا سيئات المسيء ؛ لأنها قد تلهمه أن يقدم من الخير ما يمحو به سيئاته .

ولذلك قالوا : إذا استقرأتَ تاريخ الناس ، أصحاب الأنفس القوية في الأخلاق والقيم ؛ قد تجد لهم من الضعف هنات وسَقَطات ؛ ويحاولون أن يعملوا الحسنات كي تُذهِب عنهم السيئات ؛ لأن بالَ الواحد منهم مشغولٌ بضعفه الذي يُلهبه ؛ فيندفع لفعل الخيرات .

وبعد أن اعترفتْ امرأة العزيز بما فعلت ؛ قالت :

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) ﴾ [يوسف]

أي : أنها أقرَّتْ بأنه سبحانه وتعالى لا يُنفِذ كيد الخائنين ، ولا يُوصِّله إلى غايته .

وتواصل امرأة العزيز فتقول :

﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٣) ﴾

هذا القول من تمام كلام امرأة العزيز ؛ وكأنها توضح سبب حضورها لهذا المجلس ؛ فهي لم تحضر لتبرئ نفسها :

﴿ إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ .. (٥٣) ﴾ [يوسف]

ومجيء قول الحق سبحانه المؤكَّد أن النفس على إطلاقها أمَّارة بالسوء ؛ يجعلنا نقول : إن يوسف أيضاً نفس بشرية .

وقد قال بعض العلماء[1] : إن هذا القول من كلام يوسف ، كردٍّ عليها حين قالت :

﴿ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) ﴾ [يوسف]

وكان من المناسب أن يرد يوسف عليه السلام بالقول :

﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي .. (٥٣) ﴾ [يوسف]

ويمكن أن يُنسب هذا القول إلى يوسف كَلَوْنٍ من الحرص على ألاَّ يلمسه غرور الإيمان ، فهو كرسول من الله يعلم أن الله سبحانه هو الذى صرف كيدهُنَّ عنه .

وهذا لَوْن من رحمة الله به ؛ فهو كبشر مُجرَّد عن العصمة والمنهج من الممكن أن تحدث له الغواية ؛ لكن الحق سبحانه عصمه من الزَّلَل .

ومن لُطْف الله أن قال عن النفس : إنها أمَّارة بالسوء ؛ وفى هذا توضيح كافٍ لطبيعة عمل النفس ؛ فهى ليستْ آمرةً بالسوء ، بمعنى أنها تأمر الإنسان لتقع منه المعصية مرة واحدة وينتهى الأمر .

لا ، بل انتبه أيها الإنسان إلى حقيقة عمل النفس ، فهى دائماً أمَّارة بالسوء ، وأنت تعلم أن التكليفات الإلهية كلها إمَّا أوامر أو نَوَاه ،

---

(١) قاله ابن جرير الطبرى وابن أبى حاتم . والقول الأشهر والأليق بسياق القصة ومعانى الكلام أنه من قول امرأة العزيز ، لأن سياق الكلام كله من كلامها بحضرة الملك ، ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم ، بل بعد ذلك أحضره الملك . [انظر : تفسير ابن كثير ٢/٤٨١ بتصرف] .

وقد تستقبل الأوامر كتكليف يشقُّ على نفسك ، وأنت تعلم أن النواهى تمنعك من أفعال قد تكون مرغوبة لك ، لأنها فى ظاهرها ممتعة ، وتلبى نداء غرائز الإنسان .

ولذلك يقول المصطفى ﷺ :

« حُفَّتْ الجنة بالمكاره ، وحُفَّتْ النار بالشهوات »(١) .

أى : أن المعاصى قد تُغريك ، ولكن العاقل هو من يملك زمام نفسه ، ويُقدِّر العواقب البعيدة ، ولا ينظر إلى اللذة العارضة الوقتية ؛ إلا إذا نظر معها إلى الغاية التى تُوصِّله إليها تلك اللذة ؛ لأن شيئاً قد تستلذُّ به لحظة قد تَشْقى به زمناً طويلاً .

ولذلك قلنا : إن الذى يُسرف على نفسه غافل عن ثواب الطاعة وعن عذاب العقوبة ، ولو استحضر الثواب على الطاعة ، والعذاب على المعصية ؛ لامتنع عن الإسراف على نفسه .

ولذلك يقول النبى ﷺ :

« لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »(٢) .

إذن : فلحظة ارتكاب المعصية نجد الإنسان وهو يستر إيمانه ؛ ولا يضع فى باله أنه قد يموت قبل أن يتوبَ عن معصيته ، أو قبل أن يُكفِّر عنها .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣/١٥٣ ، ٢٥٤) ، ومسلم فى صحيحه (٢٨٢٢) ، والترمذى فى سننه (٢٥٥٩) من حديث أنس رضى الله عنه .

(٢) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٧٥) ، ومسلم فى صحيحه (٥٧) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

ويخطىء الإنسان فى حساب عمره ؛ لأن أحداً لا يعلم ميعاد أجله؛ أو الوقت الذى يفصل بينه وبين حساب المولَى - عَزَّ وجَلَّ - له على المعاصى .

وكل منَّا مُطَالب بأن يضع فى حُسْبانه حديث الرسول ﷺ :

« الموت القيامة ، فمَنْ مات فقد قامت قيامته »[1] .

ولنا أسوة طيبة فى عثمان بن عفان - رضى الله عنه - وهو الخليفة الثالث لرسول الله ﷺ ، الذى كان إذا وقف على قبر بكى حتى تبتلَّ لحيته ، فسُئل عن ذلك ؛ وقيل له : تذكر الجنة والنار فلا تبكى ، وتبكى إذا وقفتَ على قبر ؟ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« إن القبر أول منازل الآخرة ، فإنْ نجا منه صاحبه فما بعده أيسر منه ، وإن لم يَنْجُ منه ، فما بعده أشد »[2] .

لذلك فلا يستبعد أحد ميعاد لقائه بالموت .

وتستمر الآية : ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّى إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٣) ﴾ [يوسف]

ونعلم أن هناك ما يشفى من الداء ، وهناك ما يُحصِّن الإنسان ، ويعطيه مناعة أن يصيبه الداء ، والحق سبحانه غفور ، بمعنى أنه يغفر الذنوب ، ويمحوها ، والحق سبحانه رحيم ، بمعنى أنه يمنح الإنسان مناعة ، فلا يصيبه الداء ، فلا يقع فى زلة أخرى .

---

(١) ذكره العجلونى فى كشف الخفاء (حديث رقم ٢٦١٨) عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، وتمامه : « أكثروا ذكر الموت ، فإنكم إن ذكرتموه فى غنًى كدَّره عليكم ، وإن ذكرتموه فى ضيق وسَّعه عليكم » الحديث .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/٦٣) ، وابن ماجه فى سننه (٤٢٦٧) ، والترمذى فى سننه (٢٣٠٨) وقال : « حديث حسن غريب » من حديث عثمان بن عفان رضى الله عنه .